

المتخيل والتاريخ في رواية "سراج" لـ"رضوى عاشور"

*the imaginator and history in the novel "Siraj" by "Radwa Ashour"*سامية رحال^{1*}، عادل بوديار²¹ جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي (الجزائر)، samia.rahall@univ-tebessa.dz² جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي (الجزائر)، adel.boudiar@univ-tebessa.dz

مخبر الدراسات الإنسانية والأدبية

تاريخ الإستلام: 2024/01/10 تاريخ القبول: 2024/09/29 تاريخ النشر: 2024/10/12

ملخص:

نحاول من خلال مقالنا هذا عرض العلاقة التي تحكم المتخيل والتاريخي في رواية "سراج" لـ"رضوى عاشور" وتحديد خصوصيتها، وذلك عن طريق تحليل الرواية وتسليط الضوء على النص السابق (وهو نص تاريخي مرجعي)، والنص اللاحق (وهو النص المتخيل)، ومعرفة الدور الذي يضطلع به المرجعي هنا، وما إن كان المتخيل خادما له أو العكس.

الكلمات المفتاحية: المتخيل؛ التاريخ؛ الرواية؛ المرجع.

Abstract:

Through our article, we are trying to present the relationship that governs the imaginator and the history in the novel "Siraj" by Radwa Ashour and determine its specificity. This is done by analyzing the novel and highlighting the previous text (which is a historical reference text), and the subsequent text (which is the imaginary text), and knowing the role that the referential plays here, and whether the imaginator is his servant or vice versa.

Keywords: imaginator, history, novel, reference.

1. مقدمة.

تهتم الرواية العربية المعاصرة بالبعد التاريخي كمرجعية أساسية في استنطاق الأحداث الزمنية وتبيان العلاقة التعالقية التي تجمع كل من التاريخي والمتخيل ضمن النص الروائي الواحد، فهي تسعى إلى ترسيخ مبدأ إعادة ملامح الماضي كملح من ملامح التجديد الذي يميز النص والخطاب ضمن آلية استنطاق الحاضر واستحضار الماضي.

إنَّ قراءة رواية "سراج لـ: رضوى عاشور" عبارة عن رحلة فكرية حضارية تختصر لنا عالم المدونة التاريخية المتخيلة، فهي تسأل التاريخ وتستحضره لتوظفه في خدمة المتخيل لا لخدمة المرجعي، مركزة على حادثة أساسية واحدة مستعينة بها في إثراء المتخيل وإضفاء الواقعية عليه، فالكاتبة تتجرد من ملكيتها الخاصة وتبحر بنا إلى عالم من نسج الخيال ثم تعود بنا إلى عالم بريء يوقع القارئ بين عبثية الواقع الحقيقي وجدلية المتخيل الذي يفرض ذاته بين أسطر التاريخي.

قوة هذا الربط الميكانيكي الأدبي، جعلتنا نتساءل عن التعالق بين المتخيل والتاريخ المستحضر في رواية "سراج" وكيف تمثل من خلال الرواية، وقد هدفنا من خلال تحليلنا للرواية إلى معرفة هذه جمالية هذا التناوب بين الماضي والحاضر وإبراز الصدام الفكري والتاريخي للواقع الاجتماعي.

أولاً: التاريخي والمتخيل في رواية "سراج":

إننا إزاء رواية تاريخية وكما نعلم فإن الرواية التاريخية في أبسط تعريف لها «هي سرد نثري يركز على وقائع تاريخية تنسج حولها كتابات ذات بعد إيهامي معرفي، وتنحو الرواية التاريخية غالباً إلى إقامة وظيفة تعليمية.» (فتحي، 1986)⁽¹⁾، وإن كانت رواية سراج تبتعد عن التعليمية حيث إنها تستخدم التاريخ ولا تعلمه، ذلك أن حضور التاريخ فيها حضور محتشم إذ إننا نرصد حادثة تاريخية مرجعية واحدة هي "ثورة عرابي وقصف الاسكندرية"، عكس الأعمال الروائية التاريخية التي تكون غايتها التعليمية، كما عند جورجي زيدان أين نجدها مكثفة ومليئة بالأحداث والوقائع التاريخية المرجعية.

فرواية "سراج" لـ"رضوى عاشور" ليست رواية تاريخية تعليمية ولكنها رواية تستحضر التاريخ، وتستفيد منه لخدمة المتخيل لا لخدمة المرجعي، مركزة على حادثة واحدة مستعينة بها في إثراء المتخيل وإضفاء الواقعية عليه، لتوصل إلى القارئ من خلال هذا عبرة أن الطغاة الخونة المحميين من طرف المحتلين دوماً ما ينجحون في إخماد ثورة الأحرار، بالتالي فإن المؤلفة هنا لا تُعلِّمُ التاريخ، ولا تستنطقه بقدر ما تستخدمه للتعبير عن رؤية فنية تخصها كمبدعة «يتوزع علم التاريخ والرواية على موضوعين مختلفين يستنطق الأول الماضي ويسائل الثاني الحاضر وينتبهان معا إلى عبرة وحكاية» (درج، 2004)⁽²⁾، وقد استطاعت أن تستغل حادثة تاريخية بعينها لتجعل منها أساساً لتخيّلها الروائي، ثم إنها برعت في الإسقاط الدلالي للمتخيل التاريخي على وقع الأحداث السياسية والاجتماعية التي يعيشها المجتمع المعاصر فهي إزاء تبيان سردية تحمل ثنائية السلطة المستبدة والإنسان المقهور الذي لا سلطة له في المجتمع لتصور لنا بشاعة الحكم العربي السلطوي الذي يستسلم للذات والنساء ويتفنن في تجويع شعبه بالقوانين الاستبدادية، حيث يهدي الملك في الرواية العبيد للإنكليز "هؤلاء هبة مني يصبحون من حر أموالكم يقيمون مع عسكريكم في المحطة ولا يغادرونها ولا يعودون إلى مخالطة أحد من أهل الجزيرة." (عاشور، 2008)⁽³⁾، ويمارس ملذاته ويحتقر شعبه "لو كان والده السلطان خالد على قيد الحياة

لوافق فقد كان أقل قسوة وهذا السلطان حمله على ظهره وهو صبي وركض به من القلعة إلى الميناء ومن الميناء إلى القلعة/.../ كلب جحود ينكح ما لا حصر له من النساء ويملك الجزيرة ومن عليها» (عاشور، 2008)⁽⁴⁾

تستند الكاتبة في خطاب الرواية إلى السرد المتخيل الذي يحتمل النص الاستعارات المكانية وهو "الجسر الذي ينتهي فيه الواقعي ويبدأ منه المتخيل، فيتحوّل الافتراض السردى إلى حقيقة سردية" (إبراهيم، 1990)⁽⁵⁾، وهنا تدور فكرة الحكاية المتخيلة عن "السلطان نعمان بن خالد"، فإذا حاولنا ربط المتخيل بالتاريخي سنجد أن التاريخ العربي القديم قدم لنا حكايات مماثلة لقصص استبداد السلاطين وجبروتهم على مجتمعاتهم وانفرادهم بالسلطة وهي جدلية تتضمن الواقعي أكثر منه التخيلي، حيث عرف في التاريخ العربي وفي تاريخ مصر خدمة الملوك لمصالح الاستعمار "مع بداية 1941 انتقل الملك فاروق في علاقته مع المسؤولين في ألمانيا النازية من مرحلة ابداء التعاطف والتأييد إلى مرحلة الإعداد للتعاون الوثيق معهم" (عتيق، 2006)⁽⁶⁾، ونماذج السلاطين والملوك الراضين لإرادة العدو الأجنبي عديدة في التاريخ، استفادة المؤلفة هنا تحديدا من فترة الاحتلال الانكليزي لمصر، واستحضرت، شخصية ملكة بريطانيا "رافق السلطان ضيفته إلى مركز الساحة حيث نصب ميزان كبير صعدت على إحدى كفتيه/.../ السلطان يريد إكرام الملكة باهدائها وزنها ذهباً!/.../ نزلت الملكة عن الميزان وصافحت السلطان وسار الموكب في اتجاه القلعة وسط صخب الحشد ودق الطبول." (عاشور، 2008)⁽⁷⁾، التي مكنتها من الربط التاريخي للوقائع الحضارية التي تؤسس للتاريخ المصري مع الاحتلال البريطاني لتعارض لنا الرؤية مع المعطى الإيديولوجي الذي يرصد لنا صوت الذاكرة التاريخية الكولونيالية كمرجع أساسي للعلاقة بين التاريخي والمتخيل في الرواية.

ثانيا: تفكيك المتخيل، النص السابق والنص اللاحق:

في تعاملنا مع الرواية التاريخية عموما ومع رواية سراج خصوصا فإننا نجد أنفسنا بين نصين نص سابق ونص لاحق، بما معناه أن المبدع في الرواية التاريخية يشغل ضمن حدود التناس، فهو: "يستثمر أنواعا أدبية ونصوصا سابقة ويدمجها في متن نص ما من نصوصه التي ينتجها، ليكون عمله توفيقا بين ملفوظين أو نصين أحدهما سابق عن الآخر ويسعى اللاحق منهما للاستفادة من السابق عن طريق تقنيات تحويل وتغيير في بناء وجعلها خادمة للسياق المعاصر للنص" (شعيب، 2023)⁽⁸⁾ فالنص السابق هنا هو ما يشكل القاعدة الأساسية للعمل وهو نص تاريخي، وهذا النص نص مرجعي اعتمدت عليه المؤلف في روايتها لتوليد قيم جديدة تتعالق مع قيم النص التاريخي الذي يتمثل في ثورة عرابي وقصف الاسكندرية.

إن الرواية تقوم على هذا الجدل بين الماضي والحاضر، بين المرجعي التاريخي القديم، والمتخيل الروائي الحاضر «في كل رواية تاريخية جدل بين نصين: نص قديم تستحدثه القراءة. نص جديد ينشأ بين السجل بين الحاضر والماضي، والأنا والغير، وبهذا نجد أنفسنا أمام ضروب من العلاقات بين النص الطريف، والنص التالذ» (القاضي، 2008)⁽⁹⁾، ورغم أن المؤلفة لم تفصل في هذا الحدث داخل المتخيل بل جاءت به على سبيل الذكر والإحالة واضعة في حساباتها إطلاع القارئ المسبق على ثورة عرابي⁽¹⁰⁾ فاكثفت بذكر الحادثة على لسان الفتى محمود الذي يسأل سعيدا "ألا تعرف عرابي؟" قاصدا التعجب من عدم معرفته به وهو بطل مصر الذي ثار على الإنجليز وعلى الخديوي، لذلك فإن عرض هذه الحادثة التاريخية المرجعية كان من خلال الشخصيات المتخيلة وفق منظور شعبي «أنظر يا سعيد، اسمع يا سعيد، الطواحي تجيب عليهم.. الإنجليز يضربون من البحر والطواحي ترد، الطواحي تضرب عليهم كما يضربون علينا.. عرابي جدع، عرابي جدع يا ناس» (عاشور، 2008)⁽¹¹⁾، في حين أنها ركزت على الجانب المتخيل أكثر لأنها لا تريد من النص المرجعي إلا قيمة الثورة وقيمة الخذلان وتجسيد فكرة أن التاريخ يعيد نفسه، ولتؤكد على فكرة أن الحاضر إنعكاس للماضي تماما كـ "كارلايل" الذي «اعتمد الماضي مقياسا للحاضر منها الانكليز إلى ما كانوا يحتاجونه من مجديات الماضي الاجتماعي والأخلاقية (حيث الهرمية والأبوة والعدل. إلخ) كما تصورها.» (الموسوي، 1985)⁽¹²⁾، لذلك فقد جاء النص

اللاحق نصا متخيلا يعتمد في أساسه على حادثة تاريخية مرجعية دون أن تنسج الأحداث حولها لأن النص اللاحق لا يمت لثورة عرابي بصلة إلا بما يرد لها من ذكر في ثنايا الرواية.

فالأحداث تدور في فضاء جزيرة بين شاطئ زنجبار واليمن وهو فضاء متخيل، يحكمها السلطان "نعمان" سلطان طاغ ومتسلط، وتعرض حياة السلطان وحياة السكان اليومية، كما تعرض حياة العبيد وشيئا من تاريخ أسرة هذا السلطان، ولا يتقاطع النص المتخيل هنا مع النص المرجعي إلا في علاقة السلطان بالإنجليز الذين يتدخلون في شؤون جزيرته تماما كما هو الحال مع ما حصل في مصر في فترة عرابي، وأيضا فيما يتعلق بثورة السكان والعبيد على السلطان الذي تشبه كثيرا ثورة عرابي بل هي ثورة عرابي ذاتها لكن في إطار متخيل لأن الثورة تفشل كما فشلت ثورة عرابي وهنا تطرح المؤلفة تؤكد المؤلفة على القيم المشتركة بين المرجعي التاريخي وما تريد هي قوله استنادا إليه وهي أن الثورة مهما كانت ناجحة ستعرض للخيانة والخذلان وأن التاريخ يعيد نفسه دائما.

وننتبه هنا إلى أن المرجعي التاريخي جاء خدمة للمتخيل عندنا لذلك طغت مساحة المتخيل على المرجعي على عكس الروايات التاريخية المألوفة التي يكون فيها للمرجعي مساحة لأبأس بها أين تكون الرواية خادمة للتاريخ وليس العكس كمثل ما نجده عند جورج زيدان «إن الرواية تقوم على عقد ائتماني يجعلها منتمية إلى كون متخيل، أما الرواية التاريخية فهي تجمع بين التخيل، والواقع التاريخي النصي، ومن ثم فإن اجتماع المتخيل الواقعي فيها على أساس التعاضل ينتج كونا خياليا تضحل فيه العلاقة التقابلية القائمة على الانعكاس وتحل محلها علاقة تواشج، وتنافذ قائمة على الحوار» (القاضي، 2008) ⁽¹³⁾، إننا هنا نجد التاريخ خادما للرواية حيث تريد المؤلفة إعطائنا تصورا عن كيفية ظهور الطغاة، وكيفية نشوء الثورة والتمرد في صدور الشعب، وكذلك كيفية تعرض الشعب للخذلان والخيانة وفشل جهوده في الحصول على حريته (ثورة العبيد على الملك النعمان وتدخل الإنجليز غير المتوقع لإحباط الثورة).

لا تعلم الروائية لماذا تعود للتاريخ إذ لا تجد هي في حد ذاتها إجابة واضحة لهذا السؤال، «"سراج" وهي آخر ما أنجزت من نصوص (كتبها في شهري يوليه وأغسطس ١٩٨٩) تدور أحداثها في نهاية القرن التاسع عشر والنص الذي أكتبه حاليا يحكي عن شخصيات عاشت في أواخر القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر، لماذا العودة للتاريخ؟ سؤال طرحته على نفسي ولم أجد له إجابة صريحة هل أحتمي بالتاريخ على ما فيه من ألم، من واقع تستريح النفس منه ولا تملك التعامل الهادئ معه؟ هل أبحث فيه عن سند، عن فهم، عن إجابات؟ هل هو هروب أم مواجهة؟» ⁽¹⁴⁾ (عاشور، 2008) لكننا سنحاول الإجابة عنه.

إن التاريخ يتيح إطارا لأبأس به للعمل المتخيل، ويقدم مادة غزيرة للروائي يستطيع تشكيلها والاستفادة منها، إن الروائي حين يلجأ للتاريخ فإنه يلجأ إليه لأنه يجد فيه نموذجا نصيا بالدرجة الأولى، وهو على هذا توسيع لتجربة الكتابة بالدرجة الثانية «تفترض الخصوصية، حين يلجأ الروائي إلى التاريخ، أنه في كل مرة يوجد هناك نموذج نصي مجدد، لأن سؤال الكتابة يفترض تقديرا معيناً لتصوير الأدب لدى هذا الروائي أو ذاك، وفي هذه الفترة الزمنية أو تلك /.../ تفترض الخصوصية النصية للتاريخي وعيا لدى الروائي كلما تكونت لديه فكرة الالتجاء إلى التاريخ، وعلى هذا النحو، يصبح التاريخي إمكانا لتوسيع أفق الكتابة خارج اعتبار النموذج وتصنيفاته الثابتة.» (الحجمري، 1997) ⁽¹⁵⁾، والروائي لا يكتب التاريخ أو يجتره ولكنه يستنبط منه ويعيد

تشكيله فنيا، ليقول ما لا يقوله المؤرخ، وإن كانت المؤلفة حائرة في سبب عودتها للتاريخ فإننا نرى أن عودتها له عموما، هو غريزة تتعلق بها ككاتبة روائية، تستعين بمادته ورمزيته في التعبير عن حاضرها.

ثالثا: التاريخي خادما للمنتخيل:

لقد علمنا بأن المؤلف تستند للتاريخ في كتابتها الروائية كما علمنا أن التاريخ عندها يخدم المنتخيل، ووفق هذا الطرح يمكننا القول بأن المادة التاريخية الموجودة في النص لا تنتمي فعليا للتاريخ المرجعي وإن كانت تحيل إليه، وسنحاول فيما يلي تتبع المرجعيات التاريخية وتحديد دورها في المنتخيل.

الأحداث المرجعية الموجودة في رواية "سراج" هي "ثورة عرابي" وحادثة قصف الاسكندرية"، وتأتي الحادثتين في عمق الرواية بعد أن نتعرف على شخصية آمنة وابنها سعيد الذي سافر ولم يعد، آمنة الأم المكومة تنتظر كل يوم أخبار عن ابنها حتى ينزل الانجليز في الجزيرة التي تقطنها، الجزيرة التي يحكمها الملك الظالم نعمان بن خالد، لا تأتي السفينة الانجليزية بخبر لكن آمنة لا تقطع الأمل.

من جهة أخرى تنقل لنا المؤلفة ما وقع مع سعيد إذ إن المركب تركه في ميناء الاسكندرية في مصر، متقاطعة في هذا مع التراث العربي (قصص السندباد)، يتعرف سعيد على الفتى محمود، الذي يخبره عن السندباد والشاطر حسن، وعرابي «- ولا عرابي؟! ثم بدأ يحكي له حكاية وراء أخرى ينتقل من الشاطر حسن وهو يواجه الغولة فتقول له: لولا "سلامك سبق كلامك أكلت لحكمك قبل عظامك" إلى عرابي على حصانه في الميدان يقول للخديوي: "لسنا عبيداً ولست سيدنا" إلى الخواجة الذي يعمل أخوه في بيته اله وجه كمؤخرة السعدان ويأكل رطلين من اللحم كل يوم" إلى السندباد الذي حم ل ش يخا مريضاً على كتفيه ثم رأى حوافره فعرف أنه الشيطان متنكراً» (عاشور، 2008)⁽¹⁶⁾، ثم يعيش معه في الاسكندرية حتى يشهد حادثة قصف الانجليز لها وثوراة عرابي التي تنتهي بالقضاء عليها.

وهنا تضمين مسبق لما سيحصل إن فشل ثورة عرابي يمثل استباقاً لفشل ثورة العبيد في الجزيرة والطرف المشترك بين الحادثتين المرجعية والمنتخيلة هو الإنجليز في جزيرة الملك نعمان بن خالد يصير الانجليز على بناء قاعدة ولا يملك الملك قدرة على الرفض خشية أن يسقط ملكه، لكنه يشترط على الانجليز عدم الاختلاط بأهل الجزيرة، لكن يقع تواصل بين العبيد داخل القاعدة وبين العبيد في المزارع ويبدأ التخطيط للانقلاب على الطاغية "نعمان" يكون سعيد قد عاد بالفعل للجزيرة والتقى بأمنة وصديقه حافظ والعبد عمار العبد المقرب من الملك الذي حرمه من الزواج من المرأة التي يحبها (أم آمنة) يحقد على نعمان ويصفه بالكلب الجحود، وينقل سعيد لأمنه عجائب ما رآه في مصر وعن شجاعة عرابي وثورته على الانجليز ويحضر لها القهوة التي حرمها القاضي قياسا على حكم الخمر، تبدأ آمنة في التوجس وتشعر بأن ولدها يسير في طريق قد لا ينتهي على خير رغم هذا تغالب نفسها وتتجاهل حدسها.

يجتمع كل من حافظ وسعيد بالعبيد في المزارع ويبدأ التخطيط للثورة سعيد متردد في الانضمام ولا يحسم موقفه خصوصاً أن السلطان نعمان قد علم من الانجليز بتحركات مشبوهة في مزارع العبيد وبخطيئتهم للقيام بشيء ويتكرر اسم سراج الذي يظنه السلطان ثوريا من نوع ما يحاول اسقاط حكمه لا يثق السلطان بكلام الانجليز لكنه لا يهمله ويقبض على جماعة من العبيد ويسومهم سوء العذاب ويبحث عن سراج ليجد أنها مجرد عجوز في قفة يضحك من الأمر ويعتقد أنه أبطل الثورة ثم يحسم سعيد موقفه وينضم للثورة بعدما تمت معاينة صديقه

حافظ بسبب ضربه لريس المركب الذي يشتغلون فيه، لأن الريس المستبد كان يعامل أحد البحارة المرضى بسوء لم يجرؤ أحد على الوقوف باستثناء حافظ الذي يعاقب بشدة ويتجاهل السلطان وزوجته توسطات أم لطيف خالة حافظ بإطلاق سراح حافظ والعفو عنه «كانت أمانة ساخطة ومتمردة ولكنها دارت ما في قلبه ا عن سعيد فماذا لو انتقل إليه شعورها فأثى عم لا متهورا فأصابه ما أصاب صاحبه قضت ليلتها تدعو في صمت على ريس المركب والسلطان وزوجة السلطان "نخدمهم ونش في طول اليوم ليمثلوا بطونهم ثم نقصدهم في خدمة لن تكفلهم إلا كلمة تعيد لنا روحنا فيقضونها "هذا ما قالته تودد» (عاشور، 2008) ⁽¹⁷⁾، يتخذ سعيد قراره بالانضمام للثورة مدفوعا بما قام به عراقي في مصر ويستكمل الامر ويتم التواصل مع عمار الذي يقدم للثوار شكل القصر من الداخل ويسرق مفاتيح السجن لتحرير السجناء، وتنطلق الثورة.

يزحف العبيد وأهالي الجزيرة من بحارة ونجارين وعمال إلى القلعة يحمل كل واحد منهم سراجا في يده يرى الجنود الأضواء تتكاثر وتصعد التلة يفزعون ويتم اطلاق السجناء وتوشك القلعة على السقوط عندما تبدأ أشلاء الثوار في التناثر تحت رحمة قصف الانجليز الذين يتدخلون لحماية السلطان «لماذا لم يحسبوا حسابا للإنجليز،؟.. لماذا لم ينتبه وينبههم إلى أن الإنجليز سيتدخلون لحماية السلطان؟». كان السؤال في قلب سعيد جمرة تعذبه وهو يركض بحثا عن عمار بين آلاف الهاربين من القصف. "لا بد أن يجد عمار، لا بد أن يجده ليحملة على كتفيه وينزل به التلة.. وأمانة.. أين.. " لم يكتمل السؤال إذ فاجأت له القذيفة فمال جذعه وسقط بالطائر الذي كان يحمله فوق رأسه». (عاشور، 2008) ⁽¹⁸⁾، وتنتهي الرواية بحصول أمانة على جثة سعيد الذي مات في الثورة وبحديثها مع النجوم إذ تعتبر أن كل نجمة هي روح لأحد المفقودين وفي النهاية تؤكد أمانة على منظور المؤلفة وما تتبناه من أفكار لعل أبرزها أن التاريخ يعيد نفسه «هذا النجم سعيد، وذاك حافظ، وذلك عمار، وتلك تودد، والنجم البعيد هناك محمود. تحدث أمانة كل نجم على حدة ثم تحدثها مجتمعة، تعيد عليها الحكاية من أولها": في البدء كنت أخاف البحر.. كنت صغيرة خضراء أجهل الحياة.. أُلثع في الكلام ولا أخاف إلا البحر.. ولم أكن أعرف أنه " تحكي ولا تتوقف إلا لكي تتأكد أنهم يتابعون "هل تسمعي يا سعيد؟"، "أليس ذلك ما حدث يا عم ألا تو افقيني يا تودد، وأنت يا حافظ ماذا تقول؟"» (عاشور، 2008) ⁽¹⁹⁾، وهذه الفكرة هي الفكرة الأساسية التي يستند إليها العمل وهي التي استدعت الاستعانة بالتاريخ وبثورة عراقي وحادثة قصف الاسكندرية.

إن المؤلفة تحاول تجسيد فكرة خذلان الشعوب وفشل ثوراتها وطغيان الحكام، لكنها في الوقت ذاته تطرح فكرة أن النتائج ذاتها تتكرر كلما حاولت هذه الشعوب الثورة على هؤلاء الطغاة «إذ إن الروائي يسائل في تاريخه الوطني المخذول انتصار التاريخ الذي هزمه، بقدر ما يحاور مؤرخا صامتا يقول ما أملى عليه الواقع المقيد أن يقوله لا أكثر» (دراج، 2004) ⁽²⁰⁾، بما معناه أن التاريخ يعيد نفسه، وقد استغلت في هذا حادة مرجعية حقيقية لا اختلاف عليها فعراقي عندما ثار على الملك وعندما واجه الانجليز كانت النهاية فشله وانتصار الانجليز، كذلك فإن سعيد ومن معه تمثيل تخيلي لعراقي وثورته وعندما قرروا اسقاط الملك فإن فشلهم كان على يد الانجليز، تحاول المؤلفة أن تقول بأن حياة العملاء الذين يضطهدون شعوبهم ويستقوون بالأجنبي على أهل البلد تدوم أكثر من حياة أولئك الأحرار الذين يرفضون هذا التدخل.

إذن فثورة عراقي وحادثة قصف الاسكندرية هي ما شكلت إطار الرواية الحقيقي، فمن خلال المقارنة يمكننا استنتاج التماثل الذي استندت إليه المؤلفة (عراقي/ سعيد، الثورة على الخديوي والانجليز/ الثورة على الملك نعمان، قصف الانجليز للاسكندرية وفشل الثورة/ قصف الانجليز للثوار وفشل الثورة)، وفي الوقت ذاته فإن ثورة عراقي وقصف الاسكندرية داخل العمل أخذت بعدا رمزيا، فسعيد المعجب بعراقي الناقل لحكاياته وقصف الانجليز للاسكندرية يجد نفسه في موضع عراقي ذاته «— أنتم شباب تجري الدماء الحارة في عروقكم ولك ن عندما يتقدم بكم العمر ستعرفون أن الإنسان لا يفعل دائما ما يتمنى وأن الشر من حوله أقوى منه ولا يملك الانتصار عليه. الله وحده هو المنتقم. ولكن سعيد أصبر في عناد:— ولكن الإنسان لا يترك حقه ولو صدق كلامك

لك ان على خطأ حين حارب الإنجليز. - ولكنه هزم يا بني. - لكنه حاول يا والدي.» (عاشور، 2008)⁽²¹⁾، وقصة عرابي وثورته تعتبر استشرافاً لما سيحصل مع ثورة العبيد، لقد جاء النص التاريخي هنا داعماً للمتلخي مؤازراً لما يتوجه إليه قصد المؤلف، بالتالي فقد جاء التاريخي خادماً لهذا القصد «إن دلالة الرواية التاريخية لا تتأسس على ما يقوله نصها فحسب، وإنما تقوم أيضاً على ما يحيل إليه النص التاريخي الثاوي في أعطافها، ومن هذا التلاقي تنشأ حركة النص، وهي تتنزل بين المقصد الأصلي للنص الأول، والمقصد الطارئ للنص الثاني، ومدي إدراك القارئ للشرارة المنبثقة من هذا اللقاء بهذا نفهم قول "جان مولينوا": «ليس المحتوي الحرفي لنص ما، هو الذي يسمح لنا بتصفيته في باب الواقع، أو في باب المتخيل، وإنما هو مقصد المؤلف، وقراءته أو سامعيته، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بالتصفية الحجاجية للقصص» (القاضي، 2008)⁽²²⁾، إن القارئ اليقظ يمكنه إدراك هذا من خلال إقامته لعلاقة التماثل بين المرجعي التاريخي الذي تم استغلاله في الرواية وبين الأحداث المتخيلة التي تستغل الأحداث المرجعية، لتوهم بواقعيتها وتضفي على نفسها شرعية مستمدة من التاريخ.

إن التاريخ نص متحول كما يقول "محمد القاضي" وأن هذه السمة تحققها الرواية لأنها جنس حوارى وأن الرواية التاريخية توهم بأنها خطاب غير مركز على الذات في حين أنها تنشأ أساساً من خطاب الذات الذي يمد نفوذه على خطاب العالم الممثل، وهو ما نجده في رواية سراج التي يمكن أن نعتبرها رواية تاريخية تجريبية يتم فيه استغلال الأحداث الماضية لتشكيل صورة عن الحاضر «ومن هنا فإن النقد يوجه إلى فهم الماضي وفهم الحاضر على السواء، وهنا يتداخل التاريخ والرواية ويغدو كل منهما صورة مرآوية للآخر» (القاضي، 2008)⁽²³⁾، يظهر لنا التاريخ كعنصر باهت هنا، إن المؤلفة لا تقصد التاريخ بقدر ما تستنبط منه العبرة، فجاءت الرواية لعبة تخيلية، لعبة تجريبية حاولت من خلالها تحطيم الشكل الروائي، وقصصت بها إلى عرض الماضي والحاضر في لوحة واحدة.

خاتمة:

حاولنا من خلال هذا المقال تقديم تحليل لبنية النص الروائي سراج، وكشف العلاقة القائمة بين المتخيل والتاريخ، مبرزين كيف تمكنت الكاتبة من تفكيك الفكر التاريخي الحضاري في إطار عمل متخيل، فالرواية تشتغل على نص سابق يشكل نواة العمل، وفي الوقت ذاته لا يشغل مساحة كبيرة منه حيث يسيطر التخييل، فقد جاء التاريخ خادماً للمتلخي، ويمكننا ادراج جملة من النتائج:

- صورت لنا الكاتبة "رضوى عاشور في روية سراج" الصدام التاريخي الحضاري التي تتخطى فيه مجتمعاتنا بين جدلية التاريخ والمتخيل كما في الإسقاط الدلالي للمتلخي التاريخي على وقع الأحداث السياسية والاجتماعية التي يعيشها المجتمع المعاصر فهي إزاء تبيان سردية تحمل ثنائية السلطة المستبدة والإنسان المقهور الذي لا سلطة له في المجتمع فتصور لنا بشاعة الحكم العربي السلطوي القديم الذي يستسلم للذات والنساء ويتفنن في تجويع شعبه بالقوانين الاستبدادية.
- اعتمدت الكاتبة على استراتيجية تفكيك التاريخ كونه خادماً للرواية حيث تريد بدورها إعطائنا تصوراً عن كيفية ظهور الطغاة، وكيفية نشوء الثورة والتمرد في صدور الشعب، وكذلك كيفية تعرض الشعب للخذلان والخيانة وفشل جهوده في الحصول على حريته.

- اعتمدت الكاتبة على حادثة تاريخية واحدة واستخدمتها لإثراء عنصر الخيال وإضافة واقعية للرواية. والهدف من هذا الاستخدام ليس تعليمياً بشكل رئيسي، بل هو لخدمة الجانب الإبداعي والتعبير عن رؤية فنية. فالهدف هو نقل رسالة تخص الوضع السياسي والاجتماعي في الزمان والمكان الذي يعكسهما نص الرواية.
- هناك دوماً جدل دائم بين الماضي والحاضر في الروايات التاريخية. ورواية "سراج" تستند إلى هذا الجدل بين المرجعي التاريخي والمتخيل الروائي، حيث تستخدم الأحداث التاريخية لتثري الرواية وتمنحها واقعية تخدم الجانب الإبداعي والفني، عن طريق الاستعانة بحادثة ثورة عرابي لإظهار كيف يمكن استخدام التاريخ لنقل رسالة تخص الحاضر، وكيف يمكن التعبير عن القيم والمفاهيم من خلال الرواية.
- استخدام ثورة عرابي وحادثة قصف الإسكندرية كمرجعيات تاريخية في الرواية يعكس الصراع بين الواقع والخيال. ويبين النص كيف تحمل هذه الأحداث معانٍ متعددة ويعكس نضال الشعوب ضد الطغاة والاستبداد. وكيفية فشل هذا النضال، عن طريق تضافر القوى الأجنبية المحتلة مع العملاء الخونة.
- تقدم المؤلفة أيضاً من خلا هذا العمل فكرة تكرار التاريخ لنفسه، وتؤكد عليها من خلال المعارضة التي حكمت سيرورة الأحداث، والتي أجرتها الكاتبة بين مصير الثوار والثورة في الحادثة المرجعية (ثورة عرابي) مع ما آلت إليه الأمور في المتخيل الروائي (ثورة العبيد).
- ختاماً، تظهر الرواية رمزية استثنائية للأحداث والشخصيات، وكيف استخدم التاريخ كوسيلة لفهم وتفسير الواقع والحاضر. إن "سراج" تقدم رؤية معقدة للعلاقة بين التاريخ والأدب وكيف يمكن للكتابة الأدبية تسليط الضوء على القضايا الاجتماعية والسياسية بشكل جاد.

الإحالات والمراجع:

- (1)- إبراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، (د.ط)، تونس: المؤسسة العربية للناشرين المتحدتين، 1986، ص 103.
- (2)- فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، ط01، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2004، ص09.
- (3)- رضوى عاشور: سراج، ط 01، مصر: دار الشروق، 2008، ص 25.
- (4)- المصدر نفسه، ص: 14، 15.
- (5)- عبد الله إبراهيم: المتخيل السردي (مقاربات نقدية في التناص والروى والدلالة)، ط01، المغرب: المركز الثقافي العربي، 1990، ص53.
- (6)- وجيه عتيق: الملك فاروق وألمانيا النازية خمس سنوات من العلاقات السرية، (د، ط)، دار الفكر العربي، 2006، ص33.
- (7)- رضوى عاشور: سراج، ص، ص: 14، 15.
- (8)- ينظر: شعيب مرواني: قصيدة "استقالة إله" للشاعر "يونس قريب" مقاربة في ضوء المنهج السيميائي، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، مج 16، ع 01، جوان 2023، جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة، الجزائر، ص 531.
- (9)- محمد القاضي، الرواية و التاريخ دراسة في التخيل المرجعي، ط01، تونس: دار المعارف للنشر، 2008، ص: 80، 81.
- (10)- ثورة عرابي حركة ثورية وطنية قومية قام بها المندوبون والعسكريون من أهل مصر ضد التدخلات الأجنبية في البلاد، والتبعية التي كان خاضعا لها نظام الحكم وفساده، وكان قائدها "أحمد عرابي" الذي شكل رمزا للحرية والمقاومة والعدل والمساواة والإيمان بحقوق الشعب في ظل دولة مستقلة (يمكن مراجعة: محمد أسامة أبو نحل: الثورة العرابية: قراءة جديدة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فلسطين: جامعة الأزهر، غزة، 2008).
- (11)- رضوى عاشور: سراج، ص 32.
- (12)- محسن جاسم الموسوي: عصر الرواية مقال في النوع الأدبي، ط 01، العراق: منشورات مكتبة التحرير، 1985، ص 65.
- (13)- محمد القاضي: الرواية و التاريخ دراسة في التخيل المرجعي، ص: 80.
- (14)- رضوى عاشور: سراج، ص 05.
- (15)- عبد الفتاح الجعمرى هل لدينا رواية تاريخية؟، مجلة فصول في النقد، مج16، ع3، 01 يوليو 1997، القاهرة، مصر، ص 62.
- (16)- رضوى عاشور: سراج، ص: 27، 28.
- (17)- المصدر نفسه، ص: 131، 132.
- (18)- المصدر نفسه، ص: 152.
- (19)- المصدر نفسه، ص: 152.
- (20)- فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، ط01، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2004، ص05.
- (21)- رضوى عاشور: سراج، ص 154.
- (22)- محمد القاضي، الرواية و التاريخ دراسة في التخيل المرجعي، ص: 81.
- (23)- المرجع نفسه، ص 82.